رثاء الأم بوصفه برا
تحليل لمرثية الشريف الرضي

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: « وبالوالدين إحسانا»[1]؛ ومن معاني الإحسان حسب اللسان: الإخلاص وحسن الطاعة[2]، ويشمل أنواع البر كلها، سواء أثناء حياة الوالدين أو بعد موتهما. ولهذا، فإن رثاء أحدهما أو كليهما بعد الممات صورة من صور الإحسان إليهما، وهو ما نعثر عليه في شعرنا العربي، الذي يزخر بمرثيات مختلفة نستحضر منها مرثية الشريف الرضي لأمه فاطمة بنت الناصر.

إن رثاء الأم صورة من صور البر المستمر، الذي لا يمكن أن يكون إلا صادقا، فمن قد ينظم مرثية كاذبة في الأم؟ ومن قد يكذب في حبه للأم؟ ذلك أن الرثاء لا توجهه خلفية نفعية ربحية، على النقيض من المدح المشدود إلى خلفية براغماتية ومصلحية، وعلى ذلك يأتي كاذبا، وهو ما انتبه إليه عبد الله الغذامي حين قال: إن ثقافة المديح «تقوم أول ما تقوم على الكذب»[3]، بل عَدَّها لعبة ثقافية تواطأ على قبولها المادح والممدوح، «كلهم قبلوا ويقبلون لعبة التكاذب والمنافقة ودخلوا مشاركين في هذه اللعبة واستمتعوا بها»[4]، إلا أن الرثاء مُنَزه عن هذه القيم الخسيسة لأنه يُبْنَى على أسس الصدق، والحب، والوفاء.

بناء على هذا، نَعُدُّ مرثية الشريف الرضي لأمه وجها من وجوه البر بها، تعكس حبه لها، ووفاءه. ولعل التأمل في أبياتها يقود إلى ضبط سيرورتها الدلالية في محورين أساسين: محور استعظام ألم فقد الأم، ومحور استعظام مناقبها. وإليك بيانهما.

1_ استعظام ألم فقد الأم

سبق لابن رشيق القول إن «سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بَيِّن الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام»[5]، وهذا هو المسلك الذي سلكته مرثية الشريف الرضي، حيث لا يفتأ يعبر عن ألم فقد الأم، وشدته. تعبير يعكسه، وُيقَوّيه، كل من الصوت، والمعجم، والصور الشعرية؛ إذ من الناحية الصوتية، يبدو أن اختيار الهمزة المكسورة المسبوقة بألف ممدودة رويا للقصيدة أمر له دلالة؛ فهي من الحروف الحلقية التي تفيد معنى الحزن والأنين، ووردت مكسورة للدلالة على نفسية الشاعر المنكسرة جراء موت أمه، كما أنها مسبوقة بألف المد للتعبير عن امتداد

---

[1] القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية 23.
[2] ابن منظور، لسان العرب، المجلد 2، دار المعارف، القاهرة، ص 878.
[3] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الدار البيضاء، ط 3، 2005، ص 94.
[4] نفسه، ص 94.
[5] ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 1، 2000، ص 831.

حزن الشاعر، واستمرار ألمه. وهو ما تدعمه الاختيارات المعجمية التي تنتهي إلى حقل دلالي واحد يتمثل في الحزن والتوجع، ومنه: أبكيكِ، لهفان أنزو في حبائل كربة، تحرقي، تأوهي وتفجعي، وقس على هذا. جو نفسي أليم سعى الشاعر إلى تقريبه للمتلقي باعتماد تشبيهات واستعارات تتفق في تأدية دور نفسي وانفعالي، كقوله: لهفان أنزو في حبائل كربة، وأهب من طيب المنام تفزعا فزع اللديغ، من يلِطُّ علي ستر دعائه، والأمثلة كثيرة في هذا الباب، وكل مثال يحتاج إلى وقفة تحليلية خاصة، ليس هذا مجالها. ولكن تكفينا هذه الإشارة البسيطة للتأكيد أن هذه الاختيارات البنائية من صوت، ومعجم، وصور شعرية، تتضافر لإبراز حجم الألم الذي اعتام الشاعر. ألم يمكن توضيح تجلياته النصية على النحو الآتي:

1_1_ الفراق انهيار

للأم دور كبير في تأمين تماسك الأسرة من جهة، وتماسك الفرد من جهة ثانية، لأنها صوت البيت الذي يوجه، ويدعم، ويحمي، ويواسي، ويقوي، ويُعِز، ويمنح كل شيء. وترتيبا على ذلك، فوجود الأسرة والفرد رهين بوجودها، وحياتها، فإذا ماتت خبا صوت البيت، وخبت معه كل تلك الأفعال، فينجم عن هذا كله انهيار الأسرة، والفرد بخاصة. وفي معنى الانهيار الفردي يقول الشريف الرضي لما فارقت أمه الحياة:

فارقت فيك تماسكي وتجملي ونسيت فيك تعززي وإبائي [1]

فالفراق المشار إليه هاهنا هو، في الأصل، فراق الأم، الذي وازى لديه فراق التماسك، والصبر، والعز، والإباء، لأن فراقها، حسب ما أشرنا إليه سلفا، يعني فقدان الحماية، والدعاء، والتمويل المادي والمعنوي، والتعلة، والسند، وهو ما صرح الشاعر بفقدانه بموت الأم، إذ إن فقدها سبب وذاك نتيجة. ويقول الشاعر مؤكدا هذه النتيجة الحتمية بصيغة استفهامات استنكارية، إذ يعلم علم اليقين أن لا امرأة في الدنيا، سواء كانت زوجة أم أختا أم خالة أم عمة أم غيرهن، ستقوم بأدوار أمه، أو تحل محلها دون أدنى إحساس بغيابها:

فـبأي كــف أســتـجــن وأتـــــــــــــــقي صرف النوائب أم بأي دعاء ؟
[2]

ومن الممول لي إذا ضاقت يدي ومـــــن المعلل لي من الأدواء ؟

فـــــــي كل مـظـلـم أزمـــــــة أو ضيقة يــبدو لها أثـــــــر اليد البيضاء

1_2_ الألم والرثاء بعد الفراق وفاء وبر

[1] ديوان الشريف الرضي، تحقيق وتعليق محمود مصطفى حلاوي، الجزء 1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط 1، 1999، ص 73.
[2] ديوان الشريف الرضي، ص 75.

إن تخصيص الأم بمرثية بعد مماتها لهو تعبير صادق عن حبها، والوفاء لها. صدق الحب يتجلى في تمني الشاعر الموت قبلها حتى لا يقع في موقف ألم الفقد، فمن منا يقدر على تحمل مشهد الموت يختطف الأم بينما لا يقدر على فعل شيء؟ مشهد عظيم يترك خلفه حسرة وغصة في الحلق، ولهذا يتمنى كل واحد منا في قرارة نفسه –إذا كان يحب بصدق وعمق أمه- أن لا يكون موتها قبله، والشاعر من هؤلاء الذين رغبوا في أن لا تسبقه أمه إلى القبر، ولكن للقدر الإلهي كلمته الأولى والآخرة. يقول الشاعر:

قد كنت آمل أن يكون أمامها يومي وتشفق أن تكون ورائي [1]

وأكثر من هذا، فإن الشاعر أبدى استعداده، وهو استعداد البار بوالدته في التحليل الأخير، للفداء والتضحية بالروح في مشهد الموت ذاك لتبقى أمه حية، ولكن الفداء لا ينفع في مثل هذا المشهد، فعبر عن هذا المعنى بقوله:

ما كنت أدخر في فداك رغيبة لو كان يرجع ميت بفداء [2]

بل إن مبارزة الموت بالسلاح والجنود لا ينفع بدوره، ولو كان نافعا وممكنا لبارزه الشاعر بجيشه:

لو كان يدفع ذا الحمام بقوة لتكدست عصب وراء لوائي [3]

إن الفداء ودفع الموت بالسلاح والجيوش أمر مستحيل، وإنما أراد الشاعر بذكر استعداده للقيام بهما تأكيد قيمتين: الحب الصادق والعميق للأم، والوفاء والبر.

فبالعودة لسيرة الشريف الرضي نجد أن الحب، والوفاء، والبر، من القيم التي تؤطر علاقته بأمه، دوما، وهي قيد الحياة، وموتها لم يكن أبدا سببا لتوقف هذه العلاقة القيمية، بل ظلت مستمرة ومتصلة، نظرا لوعي الشاعر باستمرار البر حتى بعد وفاة الوالدين، وما يسوغ وعيه بهذا هو المرجعية الدينية التي تؤطر علاقة الابن بوالديه، حيث نعثر على آيات قرآنية كثيرة، وأحاديث نبوية -والشاعر على علم بها طبعا- تدعو إلى البر بهما، أثناء حياتهما، وبعد مماتهما. وهذا السبب بالذات هو ما جعلنا نعد رثاء الأم صورة من صور البر، بما هو شيء لم يغب عن وعي الشاعر كما دل على ذلك هذان البيتان بوصفهما مستضمرين لقيمة الوفاء والإخلاص:

لو كان يبلغك الصفيح رسائلي أو كان يسمعك التراب ندائي [4]

لسمعت طول تأوهي وتفجعي وعلمت حسن رعايتي ووفائي

---

[1] ديوان الشريف الرضي، ص 74.
[2] ديوان الشريف الرضي، ص 73.
[3] ديوان الشريف الرضي، ص 73.
[4] ديوان الشريف الرضي، ص 77 وما بعدها.

2_ مناقب الأم

يميز شوقي ضيف بصدد الرثاء بين ثلاث مراتب: الندب، والتأبين، والعزاء. ويرى أن التأبين هو ذكر مناقب الميت، أي تعداد فضائله، وإشهار محامده، وهو سنة عربية تدل على أن تأبين الميت ليس من أجل رابطة الدم التي تربطه بالذي يبكيه، وإنما هو، في العمق، بكاء نموذج المروءة[1]. من ثمة لم يقف الشريف الرضي عند حدود التعبير عن ألم فقد الأم، بل جرى على سنة العرب فأشاد بمناقبها الجليلة، وهو في ذلك يبرز أن التراب لم يوار جسد أمه فحسب، وإنما وارى معه كل الصفات الإسلامية الحسنة من عفة، وزهد، وعبادة، وغيرها، مما كانت أمه على تمسك بها، قيد حياتها، بما جعل منها نموذجا جديرا بالاقتداء، وذلك هو المضمر في قوله:

لو كان مثلك كل أم برة غني البنون بها عن الآباء [2]

استحقاق النموذجية يتبدى في مناقب الأم التي تصدى لها الشاعر. وإليك بعضها.

2_1_ العفة والزهد والتعبد

يشترك الشاعر وأمه الفقيدة في المرجعية الإسلامية بوصفها المرجعية التي توجه رؤيتهما للحياة والإنسان، فكان من الطبيعي أن تصطبغ سلوكاتهما، ومواقفهما، بتعاليمها، وبخاصة إذا علمنا أن الشاعر كان فقيها، ومتكلما، ومفسرا، وكانت أمه فاطمة تقية، وعابدة، فضلا عن نسبهما الشريف. ولذلك رأى الشاعر في أمه نموذج المسلمة بكل ما تحمله الكلمة من معان؛ رأى وشهد على عفتها، وزهدها، وتعبدها ربَّها بالصيام والقيام وغيرهما، فقال:

أنـــضيت عيشك عـــفـــة وزهـــــادة وطرحت مثقلة من الأعباء [3]

بـــصيام يوم القيظ تلهب شمسه وقـــــيام طـــــول الليلة الليلاء

2_2_ المعروف والعمل الصالح

ولقد ثمَّنت أمه كلُّ أولئك بالحرص على الأعمال الصالحة بمعناها الإسلامي الواسع، والمعلوم، بنص الحديث النبوي[4]، أنها، أي الأعمال الصالحة، نور المسلم أو المسلمة في ظلام القبر، بل ومؤنسهما في وحشته. والبيتان الآتيان تناص صريح مع نص الحديث، الذي يجد فيه الشاعر سلوى قد تخفف من حرقة وحسرة الفقد، فَبِما شهد من أمه من مبادرة العمل الصالح اطمأن على حالها في ظلام ووحشة القبر:

---

[1] شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 1955، ص 54.

[2] ديوان الشريف الرضي، ص 75.

[3] ديوان الشريف الرضي، ص 74.

[4] الحديث المقصود مشهور في مسند أحمد في حديث البراء الطويل، ونـــــــــصه بالاقتصار على الشـــــــــاهد فيه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح».

معروفك السامي أنيسك كلما ورد الظـــــــلام بوحشة الـــغـبـــراء [1]

وضياء ما قدمته من صالح لك في الدجى بدل من الأضواء

2_3_ أثر الفضل الخالد

أكدنا سلفا أن الشاعر لا يبكي أمه لأن التراب وارى جسدها فقط، وإنما يبكي النموذج والقدوة التي أُهِيل عليها التراب أيضا، ومن ثمة اجتمعت عليه مصيبتان: فقد الأم، وفقد الأم-النموذج- القدوة، وهو ما لا يمكن أن يتخطى غصته، لأن أثر الأم-النموذج مستمر وخالد، والدليل أن الأشياء التي يراها حوله تذكره بها:

كيف السلو وكل موقع لحظة أثر لفضلك خالد بإزائي [2]

ولذا نزعم أن هذا البيت يستضمر فلسفة خاصة حول الموت والخلود، يمكن استشكال ذلك عبر هذا السؤال: هل في مكنة الإنسان بلوغ الخلود رغم الموت المحتوم عليه؟ وأي خلود ممكن نقصد إليه في هذا السياق؟ إن ممكن الخلود الإنساني وارد، غير أنه ليس خلودا جسديا ماديا في الحياة الدنيا بقدر ما هو خلود رمزي. فالإنسان، منذ القديم، شكل الموت بالنسبة له مشكلة مؤرقة، فسعى إلى مواجهته بابتكار صيغ معينة للانتصار عليه، وتحقيق الخلود، من ثمة لم تكن الكتابة، والنقوش، والأغاني، وغير ذلك كثير، إلا وجها من وجوه الخلود الرمزي للإنسان، وفي ملحمة جلجامش خير دليل عن بحث الإنسان الدائم عن هذا الخلود.

لقد مات امرؤ القيس، وحسان بن ثابت، والمتنبي، وغيرهم، ولكنهم ما زالوا أحياء بالمعنى الرمزي. ذلك أنهم تركوا شعرا غزيرا نعتبره وسيلة انتصروا بها على الموت، وحققوا عن طريقه خلودا أبديا. غير أن هؤلاء لما كانت وسيلتهم لبلوغ الخلود هي الكتابة الشعرية، فإن من ليس كاتبا يمكن أن يخلد، بدوره، بما يتركه خلفه من ذكر حسن، أي من أعمال صالحة كحسن الجوار، والكرم، وتنفيس الكرب عن المكروبين، والخلق الحسن، وقس على هذا. هو ذا الأثر الخالد الذي مجده، أساسا، الشاعر في أمه فاطمة بنت الناصر، مما يدخل ضمن مناقبها كما أكدنا سلفا، فبلغت بذلك منزلة الخلود الرمزي في الحياة الدنيا، ودخلت التاريخ النقي من أوسع أبوابه، ومن ثمة ما زالت نموذجا وقدوة لكل مسلمة.

وبالجملة، فقد كان هذا المقال مناسبة لوضع اللبنة الأولى من أجل رؤية مختلفة عن الرثاء، ترى إليه صورة من صور البر بالوالدين. وشكلت مرثية الشريف الرضي لأمه فاطمة بنت الناصر أرضية لتدعيم هذه الرؤية، من خلال الوقوف عند سيرورتها الدلالية التي تنتظم وفق محورين أساسين: استعظام ألم فقد الأم، واستعظام مناقبها. وهو ما قادنا، في البداية، إلى رصد التجليات النصية لهذا الألم العظيم؛ والتي تتبدى في عَدِّ فراق الأم انهيارا ماديا ومعنويا، وسببا في دوام الألم والوجع، والإحساس المستمر بالغياب والفراغ الذي لا يمكن أن تملؤه امرأة أخرى، وقس على هذا.

---

[1] ديوان الشريف الرضي، ص 77.

[2] ديوان الشريف الرضي، ص 75.

عظمة هذا الألم دفعت بالشاعر إلى نظم هذه المرثية للتخفيف من وطأته، غير أنها، في العمق، تعكس قيما جليلة من قبيل: الحب، والبر، والوفاء والإخلاص. فالشريف الرضي، وهو الفقيه المفسر المتكلم، ينطلق من مرجعية إسلامية في رؤيته للإنسان والعالم، فلم تكن لتخفى عليه الآيات والأحاديث التي حثت على البر بالوالدين في المحيا والممات، وعلى ذلك جاءت مرثيته للدلالة على هذا البر المستمر، وشاهدا ماديا عليه، بعد موت أمه. والرثاء في قصيدته لم يتوقف عند حدود استعظام ألم الفقد، بل شمل، أيضا، استعظام مناقب الأم المرحومة بالله نسجا على منوال المرثيات الشعرية العربية، فأشاد بعفتها، وزهدها، وتعبدها، وأعمالها الصالحة، مما بوأ أمه في الدنيا منزلة النموذج والقدوة، فلما ماتت لم يمَّحِ ذكرها، بل احتفظ التاريخ باسمها ونموذجيتها الجديرة بالاقتداء، فكان هذا الذكر الحسن المحفوظ أثرا من آثار خلودها الرمزي في الوجود.